ولاعادة الانشاء في وزارة المستعمرات ، وللبيان النظري في الأطروحات الانتروبولوجية والبيلوجية واللغوية والعرقية والتاريخية عن الجنس البشري والكون ، ولتقديم أمثلة على النظريات الاقتصادية والسوسيولوجية في النمو والثورة والشخصية الحضارية ، والخصائص المميزة من قومية أو دينية . وعلاوة على ذلك ، فان التفحص التخيلي للأشياء الشرقية استند بشكل اقتصادي تقريبا إلى وجدان غربي ذي سيادة ، حيث برز من صميم المركزية غير المنازعة لهذا الوجدان عالم شرقي تشكل في البداية تبعا لأفكار عامة تتعلق بمن وما هو الشرقي ، ثم ما لبث أن خضع في تشكله لمنطق تفصيلي لا يحكمه الواقع التجريبي المجرد بل تتحكم به مجموعة من الرغبات والكوابت والتوظيفات والاسقاطات . واذا كان بمقدورنا ان نشير إلى أعمال استشراقية عظيمة تنم عن البحث العلمي الحقيقي مثل « المختارات العربية » التي جمعها سيلفستر دو ساسي أو كتاب ادوارد وليم لين عن « عادات وتقاليد المصريين المحدثين » ، فالضرورة تحتم علينا ان نلاحظ بأن الأفكار العرقية التي نادى بها رينان وغوبينو انبثقت عن الباعث ذاته ، مثلما صدرت عنه اعداد كثيرة من الروايات الفيكتورية الاباحية (انظر تحليل ستيفن ماركوس لرواية « التركي الماجن »[٤]) .

ومع ذلك ينبغي للمرء أن يسائل نفسه مرارا وتكرارا عما إذا كان الشأن الهام في الاستشراق هو المجموعة العامة من الأفكار المهيمنة على كتلة المادة ، حيث لا يسع المرء أن ينكر بأن مذاهب التفوق الأوروبي تتخللها ، وتخترقها شتى أنواع العرقية والامبريالية وما أشبه ذلك بالاضافة الى نظرات جامدة حول « الشرقي » بوصفه نوعا من التجريد المثالي والثابت ؟ أو تلك الأعمال الأكثر تنوعا والتي انتجها كتاب أفراد غير مسؤولين تقريبا ، حيث يمكن للمرء اعتبارهم كأمثلة فردية على مؤلفين يعالجون موضوع الشرق . وبمعنى ما فان البديلين ، العام والخاص . هما في الواقع منظوران للمادة نفسها : ففي الحالتين كليهما يترتب على المرء ان يتعامل مع رواد في الحقل مثل وليم جونز ، ومع فنانين كبار مثل نرفال وفلوبير . ولما لا يكون من الممكن استخدام المنظورين سوية ، أو الواحد منهما تلو الآخر ؟ ألا يوجد هناك خطر واضح في التسوية (وهو بالضبط من النوع الذي كان الاستشراق الاكاديمي ميالا اليه دائما) لو جرى بصورة منتظمة اعتماد مستوى للوصف يكون إما مغرقا في العمومية أو مفرطا في الخصوصية ؟

تنحصر مخاوفي في أمرين هما التشويه وعدم الدقة ، أو بالأحرى في ذلك النوع من عدم الدقة الذي تنتجه عمومية شديدة الجزم وبؤرة تركيز مفرطة في الوضعية . ففي محاولتي ان أعالج هذه المشكلات والتعامل معها ، حاولت ان أتناول ثلاث نواح رئيسية من واقعي المعاصر إذ يبدو لي ان هذه النواحي تشير إلى الطريق للخروج من الصعوبات المنهجية أو المنظورية التي كنت أناقشها . وهي صعوبات قد ترغم الباحث ، في المقام الأول ، على كتابة مقال هجومي خشن على مستوى وصفي غير مقبول في عموميته بحيث أن الجهد يذهب سدى ، ترغمه ، في المقام الثاني ، على كتابة سلسلة من التحليلات المغرقة في تفاصيلها وتنافرها إلى درجة تفقدها كل صلة بخطوط القوة العامة المكونة للحقل ، والمسبغة عليه قوة حجته الخاصة به . كيف السبيل إذن إلى الاقرار بالفردية والى مصالحتها مع قرينتها العامة الذكية والمهيمنة ، لكنها ليست بالقرينة السلبية أو الديكتاتورية المجردة بأي صورة من الصور ؟